

العقدة التي اعاني منها والتي لم يات لها ذكر في مؤلفات فرويد . غير انها عقدة يمكن الشفاء منها بالرجوع الى الاصول التي تكونت فيها تلك العقدة . وذلك ما فعلته او حاولت .

وجاء الامر بطريق الصدفة وعلى غير ما كنت اتوقع . كنت في طريقى من رام الله الى القبيبه في الضفة الغربية في فلسطين . تلك نزهة كنت اقوم بها عصر كل يوم بعد ان عدت من الصحارى الى ذلك الجزء من بلادي الذي كان ما زال باقيا . استنعم بالهواء الذي يخفق صاعدا الينا عبر السهول من البحر . وانا عيني بالنسب وكروم النصب واشجار التين والزيتون . وعند باب مزرعة بهية على الطريق استوقفتني رؤية رجل كان قد اسهم في تكوين عقدة الأرض في نفسي .

كان اولاده يتصايحون ويتراخضون مرجين في كل ناحية . وكان هو يبلو في سعادة غامرة لم اكن اتصوره بها من قبل . وواقفت سيارتي وصحبت به من بعيد :

- يا محمود .

والفتحت اليّ من بعيد وراح يلوح لي بيده ويناديني وهو لم يتحقق بعد من اكون . وعندما التقينا تعانقتنا وضربت بكفي على ذراعه مثلما ضرب بكفه على ذراعي . اين نحن الان ؟ كيف كنا وكيف اصبحنا ؟ وماذا تفعل بنفسك هنا ؟ قال : اسكت . لقد اشتريت هذه الأرض .

- انت اشتريت هذه الأرض ؟

- نعم أنا اشتريتها .

كلها ؟

- كلها . كانت صفقه . السعر لم يكن غاليا .

- كم مساحتها ؟

- عشرون دونما .

- ومن اين جئت بكل المال المطلوب لشراء مثل هذه المساحة الكبيرة ؟

- قلت لك ان السعر لم يكن مرتفعا . انك لن تصدق . لقد

اشتريت اليوم الواحد بثلاثين دينارا .

- ثلاثون دينارا فقط ؟

- نعم . ولكن لا تنس انها كانت مهملة ومليئة بالصخور والاشواك

ولا تصلح لشيء . وحينما اشتريتها ظن الكثيرون انني مجنون . اذ من

الذي ياتي الى هذه البقعة النائية وماذا يريد ان يصنع بها . ولكنني

ايت .

كان حلمي ان اشترى قطعة ارض . قطعة صغيرة تتسع لبناء بيت صغير ومزرعة صغيرة للدواجن وانخضرات وبضع شجيرات من الفاكهة وقد قنعت من الدنيا بذلك الحلم الصغير وعملت له فترة قصيرة من الزمن .

ولكن ذلك ليس هو الموضوع بالرغم من انه لا يخلو من طرافات وحكايات كثيرة . فالموضوع هو ان شيئا مهما في داخل نفسي كان دائما يؤكد لي استحالة تحقيق ذلك الحلم . ولذلك لم اكلف نفسي مؤونة السؤال عن اسعار الاراضي بالرغم من اني كنت في فترة من الفترات املك ما يكفي لتحقيق ذلك الحلم الصغير .

لعلي كنت اتصور ان اسعار الاراضي اكبر بكثير من طاقتي وامكانياتي ولعل ذلك كان ينبع من شعور عندي بان الأرض لا يمكن تقييمها بشئ . فالارض مهما كانت صغيرة المساحة لها عمق يمتد آلاف الكيلومترات وفوقها مجال جوي يمتد الاف الكيلومترات كذلك . كانت موجودة قبل ان اولد بملايين السنين وستظل موجودة بعد ان اموت بملايين السنين . فكيف لي ان امتلكها ؟ سؤال طريف : كيف يمكن للزائسل والفاني ان يمتلك الخالد والباقي ؟ صحيح انسه لو كان الناس يفكرون مثلما افكر او يشعرون بمثل ما اشعر به لما انشئت مزرعة ولا ابنتى اي انسان بيتا . ولكن الصحيح ايضا ان الناس يعيشون في وهم . فهم بفرصة حبههم للخلود يظنون فعلا انهم يملكون الأرض التي يشترونها . وربما ان العكس هو الصحيح . اذ ان الأرض هي التي تملكهم وتستخدمهم لاستثمارها واعمارها .

وسواء اكان وهما او غير وهم فالهم انه وهم جميل اذا لم يخطر ببالك انه وهم ، واذا استطعت ان تشعر فعلا بانك تمتلك الأرض التي تشتريها . وكان هذا مما يحيرني ويقلقني . فلماذا تستولي عليّ انا دون سائر الناس مثل تلك الافكار التي تحول بيني وبين تحقيق حلمي .

ربما يعود ذلك الى تجاربي الشخصية التي تركت بصماتها واثارها التي لا تمحى في نفسي . فلقد رأيت اصحاب الاراضي وفالحيها في بلادي يتركون اراضيهم ويتحولون بين يوم وليلة الى لاجئين نازحين وكان لا حق لهم في ما زرعوه او فلحوه او امتلكوه . وخلال عملي في المناطق الصحراوية لم يكن من حقي او حق امثالي ان يشتروا ارضا حتى ولو كانوا يملكون اموال قارون . ذلك ان امتلاك الأرض كان حقا مقصورا على نمط معين من الناس يطلقون عليهم اسم سكان البلاد الاصليين .

الطريف في الموضوع انني وصلت الى حالة كدت معها ان ابحث في كتب علم النفس عن شيء اسمه عقدة الأرض . فلقد كانت تلك هي

رأيت على محياہ بريق الانتصار وهو يصف لي كيف استصلح الارض وكيف ازال صخورها وجعل منها مكانا صالحا لزراعة الاشجار والخضراوات . وكان يروي قصص فوحاته بأجمل مما يرويها فائسد خاض غمار المارك واستولى على البلدان . لقد احاط الارض كلها بشجر الصنوبر .

– وانصوبير كما برى يانع الخضرة جميل المنظر بالإضافة الى انه يعطي ثمرا . في هذه البقعة زرعت الزيتون . فهو يحتاج الى وقت طويل قبل ان ناكل منه . وهذه البقعة لا احتاج اليها الان ولذلك فقد زرعتها بالزيتون . من يدري فلربما لا ناكل منه نحن وانما ياكل منه الصغار . زرعوها قبلنا فاكلنا ونزرع نحن فيآكلون . هكذا يقال . ثم في هذه المنطقة زرعت العنب . استحضرت انواعا منه من الخليل وانواعا اخرى من سوريا . ساتبع الطريقة الحديثه في زراعة العنب . لسن اتركه يزحف على الارض وانما سأجعل له مرتكزات وعرائش يتسلق عليها . ولكنك تحتاج الى ماء .

– لذلك قصة اخرى . تعال فانظر البئر التي كدت انتهي من حفرها . انها على طريفه الاجاصه وليست على طريقة المكعب . وحفر البئر الاجاصيه اصعب وارخص من حفر البئر المكعب . ذلك انك لسن تحتاج الى سقف لها . ثم ان ماءها في الصيف اكثر برودة واطيب . ومضى بي محمود من ناحية في الارض الى اخرى وانا ماخوذ بما استطاع ان يفعله هذا الانسان . ولا تغييب من ذهني صورته قبل سنوات عديدة حينما كان مثقلا بالفقر والحزن لفقدانه ارضه ونزوحه عنها .

قلت له :

– انذكر تلك الايام يا محمود ؟
وتنهذ تنهذه عميقة وغام جيبه ثم قال :

– وكيف انسى ؟

خلته انه كاد ينسى الشيء الذي لم استطع انا ان انساه . فانا ما نسيت ذلك اليوم الذي جاء فيه هو واهله الى بيتنا وليس معهم شروى نغير . كانوا قد تردوا لتوهم من اراضيهم وليس عندهم ما يفتاتون به او يعيشون فيه . ونزلوا عندنا اياما انتفلوا بعدها الى بيت قديم مهجور بعد ان رودهم كي من في حيننا بشيء من الاناث او الاواني يستعينون بها على حناهم . كنت صغير السن آنذاك واذا تأثرت بشيء فانه لا يغييب عن ذهني ليلي او نهاري . وقد جعلني محمود احس بشعور لم يكن ليغيب عني طيلة حياتي بعد ذلك . فجأة طار من داخلي اي شعور بالاطمئنان . شعرت اني مهدد . شعرت ان الناس الذين يسيرون على الارض يحتاجون الى شيء اكثر من مجرد المشي عليها لكي يربطهم بها ويربطها بهم . شعرت ان بيتنا الذي نسكنه ليس بيتنا ما دام هنالك اناس يستطيعون ان يطردونا منه دونما ذنب اتيناه . وبدات منذ ذلك الوقت افكر وابحث . ولعل عقدة الارض تكونت عندي فسي ذلك الوقت . الرغبة الملحة في امتلاك الارض والشعور اليائس باستحالة الامتلاك .

وقلت لمحمود :

– ولكن هل نسيت ارضك القديمة ؟
– هل تريد ان اتكلم بصراحه ؟
– نعم .

– لا شيء ينسبك ارضك القديمة الا ارضك الجديدة . لقد ناضلنا كثيرا وتعينا من اجل العودة . دخلنا الاحزاب وقدنا المظاهرات ودخلنا السجون واقينا العذاب فالى متى ؟ الى متى نظل نحلم بالعودة الى ارض لم نعد نستطيع العودة اليها ؟
– هل تخليت اذا ؟

– لا لم اتخل . تلك ارض يجب ان نعمل على العودة اليها . وفي خلال ذلك لا بد لنا من ارض . دعني من السياسة الان . . ارجوك . .
وتعال ارك مشروع مزرعة الدجاج . هل تعرف ان تربية الدجاج على

الطريقة الحديثه هي افضل مشروع استثماري ؟ لقد اكتشف العلماء وسيلة لجعل الدجاجة تبيض مرتين في النهار بدلا من مرة واحدة .
– وكيف كان ذلك ؟

– بتسليط الانوار الساطعه في الليل على الدجاج قبل انقضاء الليل بحيث يظن ان الشمس قد طلعت . الوهم يصبح حقيقة وينج بيضة زائدة .

الوهم يصبح حقيقة والحقيقة فت تصبح وهما . الحياة في رؤوسنا ومثلما تكون في رؤوسنا تصبح الحياة . هذا الرجل . . محمود . . استطاع ان يعود الى بلاده بالوهم . كانت الفرحة تغمره في ارضه الجديدة كما لو انه عاد الى الارض التي طرد منها . لقد تملكته الارض وهو يظن انه تملكها . ما أجمل الوهم !

وانسفت في ذلك الوهم . وخيل اليّ انني شفيت من عقدي . الهواء والخضرة والشجر والعمل في الارض ينسيك كل شيء . ثم ماذا . . . ماذا يريد الانسان اكثر من ذلك . ورحت اسأله عن سعر الارض المجاورة لارضه . فاشرق محياہ وتحمس ونسي نفسه وهو يشرح لي اسعار الاراضي . كان ولده الصغير يحاول استجلاب انبائه فلا يلتفت اليه . فما كان من الصغير الا ان شتمه باقذع مسبة . وضحك محمود وطرب . وقال لي :

– اتدري لقد تركت لهذا الولد كامل انحرية وهو احيانا يسيء استعمالها معي كما ترى . ولكن حرية ويساء استعمالها أفضل من اللاحرية والخوف . . . الست معي ؟ والان ما عليك الا ان نسسارح وتشتري ارضا بجوار ارضي . اذ ان اسعار الاراضي المجاورة قد بدأت ترتفع بسرعة منذ ان بدأت اعمر هنا .

لم اصدق ان التقود تشتري ارضا . وانك تستطيع ان تستبدل بضع مئات من الاوراق الخضراء الجافة بالاف من الامتار المربعة من الاراضي التي تنتج لك كل يوم آفا من الاوراق الخضراء اليانعه . واشترت الارض اتني بجوار ارض محمود . وكانت العملية سهلة للغاية . ذهبتا الى دائرة تسجيل الاراضي وانتقلت ملكية الارض لي بمجرد التوقيع على اوراق ووضع الطوابع على تلك الاوراق وتسجيلها في دفاتر وقيود . . . بعد دفع الثمن طمعا . المسألة كلها وهم . ولكنه كان وهما جميلا . وعشت في ذلك الوهم شهورا عديدة . كل يوم كنت اذهب وابنائي الى ارضي . . . اسير عليها ، اقطع الحشائش منها . . اغرس رجلي في ترابها . . . افعل كل ما يمكن ان يخطر على بال لكي اشعر انها ارضي وانني امتلكها .

كان من الواضح انه لا بد لي من ان افعل اشياء كثيرة لكي اصدق انني امتلك تلك الارض فعلا . لكم تمنيت ان اعرف اسماء كل الذين امتلكوها من قبلي . او لعلها لم يمتلكها احد قبلي فقد كنت اول من بدأ يزيل عنها الصخور ويستصلحها . لا . . لا مجال للغيرة ممن امتلكوها قبلي . ولكن لا بد لي من تأكيد امتلاكي لها ولابدأ بتحقيق حلمسي الصغير .

بدأت ببناء بيت على تلك الارض . كانت حجارة البيت بيضاء من افضل صنف . لقد جئت بها من جماعين التي اشتهرت بافضل الحجارة صممت البيت بنفسي . وخصصت مكانا في الارض لزراعة الخضراوات ومكانا لزراعة اشجار الفاكهة وامكن اخرى لتربية الدجاج والارانب والاوز والماعن . . ساحقق الاكتفاء الذاتي . لن احتاج الى شراء البيض او الفواكه او الخضراوات او الحليب او اللحم . كل شيء سيكون من نتاج الارض .

وراح مشروعني ينافس مشروع جاري . نتسابق كلانا على السعادة . يقف هو في ارضه والعرق يتصبب من جبينه واقف انا في ارضي

والعرق يتصبب من جيبي . وتنجذب الاحاديث وتبادل الخبرات والتجارب . ابناؤنا يلصون ويبرحون . وابنه الصغير ما زال ينيء اللسان ولكنه ممتع ومحجوب .

وانتهيت من بناء بيتي . ولم يبق الا ان اجلب نه الكهريساء . واحتفلنا ذات مساء في ارضنا بتحقيق حلمنا . دعوت جاري واصدقائي واشعلنا نارا كبيرة اضاءت ما حولنا وشوينا اللحم عليها واكلنا وصحكنا وفرحنا . وكانت السعادة غامرة الى حد يبعث على الخوف . عاودتني العقدة فانتحيت جانبا ورحت احدي في ذلك البناء الشاهق الذي تصبغه النيران باللون الاحمر فيتوهج بياضه بالحزن .

واقترب مني محمود وقال :

– فيم تفكر ؟

قلت : – « كل ما اخشاه هو الا يكون هذا البيت من حظي بل من

حظ سواي » .

قال : – « هون عليك يا رجل ... ما هذه الافكار السوداوية في هذه الليلة ؟ هل تصدق فعلا ان هناك حربا ؟ انا لم اعد اصدق شيئا من كل هذا الذي يقال . وعلى اي حال فلن ابرح ارضي مرة ثانية مهما حدث . لن اصبح لاجئا مرتين . افضل ان اموت هنا وادفن هنا . ووصيتي هي ان ادفن في ارضي .

كان الجو مليئا برائحة الحرب وحديث الحرب . وكان الناس لا يصدقون ان هناك حربا . فلم يكن يوجد ما يدل عليها الا في اجهزة الراديو . وعندنا بعد حفلنا الى المدينة . وصحونا في اليوم التالي على توتر غير معهود . كان الناس يسرعون الى شراء حاجياتهم واختزانها وكان مناديا قد نادى بينهم بان الحرب قد قامت بالفعل . وما هي الا فترة وجيزة حتى كانت الطائرات تصفق السماء جيئة وذهابا . ورأيت محمود وابناه وزوجته في سيارته متجهين الى ارضهم .

ومرّ بي ليخبرني بما اتجهت اليه نيته . . لقد عدّ على ان يذهب الى ارضه ويبقى فيها هناك . ولكن زوجته كانت لا تزال ترفض الفكرة وتحتج بشدة . وقالت لي :

– انظر ما يريد ان يفعله بنا هذا الرجل ! انه يريد ان يأخذنا الى ارض منقطعة ليس فيها او بجوارها احد لكي نموت هناك جوعا اذا لم نمت من اي شيء اخر .

كانت عيناه تتجهان اليّ بضراعة :

– اذهب معنا . احضر ابناك لكي نشد ازر بعضنا بعضا هناك وقلت له : – « ولكن لا يوجد شيء في الارض . نكل ما فيها هو بيت ولا شيء غير ذلك » .

وقالت النسوة : « لننزل في المدينه فاذا متنا فيها فان الموت مع الناس رحمة . »

ولكن محمود ظل مصرا . وانطلق بسيارته الى الارض . ومضت ساعات . واذا به يعود من نفس الطريق . كان يبدو مقهورا مثلما رأيته اول مرة بعد النكبة الاولى متلبذ الوجه بحزن كثيف ، وابناؤه واجموز حتى الصغير منهم الذي لم يضد الوجوم .

لم اكن في حاجة لان اسأله سبب عودته فند بادرني بالقول :

– « الجيش ينسحب من تلك المناطق . رأينا الجيش ينسحب . هل تصدق . نفس ما حدث لنا من قبل . نفس القصة تعاد اليوم . الارض .. اريد ان اموت فيها . لولا زوجتي واولادي ... والله انني افضل الموت هذه المرة » .

وانطلق محمود في سيارته بابنائيه الى القدس . وسيارات كثيرة كانت تنطلق فرارا في مختلف الاتجاهات والمدفعية تهدر من بعيد .

ابراهيم أبو ناب

دار الآداب تقدم

فاروق شوشه

في ديوان

العيون المحترقة

قصائد جديدة يتعاقب فيها العنف والحنان

٢٥٠ ق . ل .

صدر حديثا